روعة اللغة العربية (8)

أ. د. يحيى صالح دحامي

مما لا شك فيه أن اللغة العربية غنية بالأمثالِ والأقوالِ المأثورةِ والنباهةِ في الألفاظِ، والفطنة في القول، ومثل ذلك الحكمة والحصافة، على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته (ترجمة Franz Rosenthal 1958)، الذي يُظهر أن الشعر في اللغة العربية فائق الروعة في هيئته وفي تكوينه ومثل ذلك يمتلك قرائح قوية في طريقة إلقائه، ويستطرد ذكر أن الشعر العربي هو مثال واضح لنموذج 'الفضيلة' العربية التي تدل على معنى المروءة والشهامة، وبطريقة مماثلة فنفس الفكرة تتماشى مع رأي الناقد Gruendler الذي يشير في كتابه (Medieval Arabic Praise Poetry: Ibn Al-Rumi and the Patron's Redemption) إلى أن الشعر العربي الفصيح، كما هو في شعر شعراء المعلقات، هو القانون الأدبي الذي من خلاله ومن خلال الشواهد لدى علماء اللغة العربية وعلماء الأنساب، وغيرهم من الباحثين الذين بَيّنوا وأثبتوا روعة الشعر العربي لدعم فرضياتهم، وتوضيح أن الشعر العربي القديم يعزز ويدعم ويوطد كثير من القضايا الأدبية والحياتية، وبذلك فالشعر العربي يمثلُ كيان أساسي محوره اللغة العربية الفصحى والخالدة ص (257)، وتجدر الإشارة استكمالاً إلى أن الشعر العربي الفصيح في زمن ما قبل الإسلام هو أهم مادة لعلم ومعرفة أحوال وأنباء وقصص العرب وحياتهم قبل الإسلام.

مازلنا نشق عباب بحر القوافي والإبداع في سفر الشعر العربي لأحد أعمدة وفحول الشعر العربي الفصيح الذي عاش شعره الخالد آلاف السنين ومازال حياً نابضاً وسيستمر بقدر ما تنفس القارئ لأسطره الخالدة، إنه أمير وأبو الصعاليك وحامي الفقراءِ والضعفاء عروة بن الورد العبسي الذي عاش في زمن الفحول من الشعراء الكبار أمثال عنترة بن شداد اللذان ينتميان إلى نفسِ القبيلةِ وعاشا في نفس الزمن.

روعة اللغة العربية (8)

أ. د. يحيى صالح دحامي

مما لا شك فيه أن اللغة العربية غنية بالأمثالِ والأقوالِ المأثورةِ والنباهةِ في الألفاظِ، والفطنة في القول، ومثل ذلك الحكمة والحصافة، على حد تعبير ابن خلدون في مقدمته (ترجمة Franz Rosenthal 1958)، الذي يُظهر أن الشعر في اللغة العربية فائق الروعة في هيئته وفي تكوينه ومثل ذلك يمتلك قرائح قوية في طريقة إلقائه، ويستطرد ذكر أن الشعر العربي هو مثال واضح لنموذج 'الفضيلة' العربية التي تدل على معنى المروءة والشهامة، وبطريقة مماثلة فنفس الفكرة تتماشى مع رأي الناقد Gruendler الذي يشير في كتابه (Medieval Arabic Praise Poetry: Ibn Al-Rumi and the Patron's Redemption) إلى أن الشعر العربي الفصيح، كما هو في شعر شعراء المعلقات، هو القانون الأدبي الذي من خلاله ومن خلال الشواهد لدى علماء اللغة العربية وعلماء الأنساب، وغيرهم من الباحثين الذين بَيّنوا وأثبتوا روعة الشعر العربي لدعم فرضياتهم، وتوضيح أن الشعر العربي القديم يعزز ويدعم ويوطد كثير من القضايا الأدبية والحياتية، وبذلك فالشعر العربي يمثلُ كيان أساسي محوره اللغة العربية الفصحى والخالدة ص (257)، وتجدر الإشارة استكمالاً إلى أن الشعر العربي الفصيح في زمن ما قبل الإسلام هو أهم مادة لعلم ومعرفة أحوال وأنباء وقصص العرب وحياتهم قبل الإسلام.

مازلنا نشق عباب بحر القوافي والإبداع في سفر الشعر العربي لأحد أعمدة وفحول الشعر العربي الفصيح الذي عاش شعره الخالد آلاف السنين ومازال حياً نابضاً وسيستمر بقدر ما تنفس القارئ لأسطره الخالدة، إنه أمير وأبو الصعاليك وحامي الفقراء والضعفاء عروة بن الورد العبسي الذي عاش في زمن الفحول من الشعراء الكبار أمثال عنترة بن شداد اللذان ينتميان إلى نفسِ القبيلةِ وعاشا في نفس الزمن.

في هذا المقال من سلسلة 'روعة اللغة العربية' نستكمل سردا وتوضيح بعض المعاني العميقة والمنيفة التي يحتويها بحر اللغة العربية الفصحى وما ينطوي عليها وفيها من صور جمالية إبداعية وبلاغية حيث وقفنا في المقال السابق عند البيت الرابع من قصيدة أصحاب الكنيف والتي تطرقنا لها في مقالات سابقة وهي:

*** ألا إنّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم كما الناس لما أخصبوا وتمولوا (ديوان عروة، 1998 ص 91–93)**

*** وإنّي لَمَدفوعٌ إليّ ولاؤهم بماوان إذ نمشي وإذ نتململُ**

*** وإذ ما يريح الحي صرماء جونة ينوسُ عليها رحلُها ما يحلّلُ**

ونبحر في هذا المقال مع البيت التالي الذي يرتبط ارتباطا مباشراً مع ما سبقه وهو:

*** موقَّعةُ الصَّفقينِ، حدباءُ، شارفٌ تُقَيَّدُ أحياناً لديهم وتُرحَلُ**

والمعنى العام للقصيدة محوره جماعته من أصحاب الكنيف الذين أساءوا إلى إحسانه وكرمه معهم بالضد مما يفترض، يستفيض الشاعر الفارس أمير الصعاليك في نعوته لجحود من كان له الفضل في إقامتهم، ويُتابعُ رسم لوحة فنية عميقة الدلالة لما ينشد، ويُظهر الصور الوصفية من واقع البيئة المستوحاة من المجتمع البشري وذلك إرساء منه على وصف حالهم معه في الوقت الذي كان عروة بحاجة إلى مساندته ولو بالرضا والاكتفاء بما منحهم من عطايا وعدم المجاهرة بالمروق أمامه، ووضع أنفسهم أندادا له، فلم يقدّموا له ما كان ينشده من العون والتقدير.

يشير في البيت أعلاه، واتصالاً بما سبقه، كشاهدٌ من شواهدِ عظمة اللغة العربية وهو الشعر العربي، والبيت أعلاه يمثل لوحة خلابة ودليل على سمو وشموخ اللغة العربية، ومن روعة الشاعر ومهارته، يقول عروة 'موقَّعةُ الصَّفقينِ، حدباءُ، شارفٌ'، وهنا على القارئ الكريم أن ينظر إلى اختيار وتناسق وترتيب الكلمات وربط ذلك بالمعنى وصوره وأمثلته الجمالية والبلاغية، ومن أجل ذلك نعرج على ما تجود به المعاجم العربية من إثراء لما نبغي من معرفة المعاني، فالموقَّعة، كما في المعجم الوسيط، هي موضع أو مكان الوقوع، ومعجم المختار الصحاح يبين لنا المعنى المراد للكلمة التالية 'الصَّفقينِ'، فالصَّفْقُ (أصل كلمة الصفقين) هوَ نمطٌ أو لونٌ من الضَّرْبِ الَّذِي يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ، ومثل ذلكَ كلمة التَّصْفِيقُ التي يصدر منها الصوتُ نتيجة ضرب الكفين معاً، وَيمكن تسمية ذلك بانه التَّصْوِيتُ، ما من شك أن كثيراً لا يستوعبون العديد من مرادفات كلمة 'الصَّفْقُ' وأن الشائع هو التصفيق ولكن هناك معانٍ

أخرى عديدة مثل صفقة البيع والشراء، وفي ذلك يقال صفقة رابحة وأخرى خاسرة، ومن معاني 'الصَّفْقُ' إرجاع أو رد الباب فيقال 'صَفَقَ الْبَابَ' أي رَدَّه أو أَرجَعهُ، ومثل ذلك صوت الرِّيح عندما تضرب أوراق الشجر فهي تَصْفِقُ بمعنى تَضْطَرِبُ، ونقل الماء أو الشراب من وعاء إلى آخر يطلق عليه 'تَصْفِيقُ' ولكن ما يهمنا من تنوع وكثرة المفردات لهذا المصطلح هو ما يعنيه الشاعر في هذا البيت حيث أن كلمة الصفقان هنا تشير إلى الجنبين وأصلها الجنبان.

ويوضح ويقرب لنا ابن السكيت المراد عن الناقة أن 'بجنبيها أثار الحبال مما تحل وترحل' ينظر ص (120) ديوان عروة بن الورد: شرح ابن السكيت تحقيق عبد المعين الملوحي، فالشاعر يواصل –كما تطرقنا في المقال السابق– وصف القدر تشبيهاً كانه الناقة، فالشاعر بفطنة العربي الفصيح استخدم وسيلتان شعريتان هما التشبيه والتشخيص حيث شبه القدر الجامد الذي لا حراك ولا حياة فيه كانه ناقة، ويمكن القول مجازاً أن الحياة والحركة الناتجة من القدر ليست في القدرِ نفسهِ ولكن فيما يوضع فيه من لحم الناقة الذي يطبخ في ذلك الإناء، والطبخ في حد ذاته يدل على حركة وكأن فيها حياة، وتوضيح ذلك في الحركة الناتجة عن نضج اللحم المطبوخ والذي يصدر عنه صوت الغليان وحركته، وذلك تصوير تشبيهي بديع أنتجه إبداع الشاعر الفارس عروة بن الورد الذي ربط شعره مع البيئة التي يعيشها.

يستمر الشاعر في الوصف لجماعته الانتهازية والجاحدة ولنفسه الكريمة التي تجود بأغلى ما يملك وذلك أسمى آيات الكرم وهو يماثل التضحية ليس فقط بما يملك وإنما بالنفس أيضا وهي أغلى ما يملكه الإنسان، ولا زلنا نبحر مع الشق الأول من البيت الشعري 'موقَّعةُ الصَّفقينِ، حدباء، شارفٌ' ووصفه للناقة بأنها حدباء شارفٌ، وبالوقوف على دلالة المفردة 'حدباء' فهي الدابة التي بدت عظام ظهرها، أما 'شارفٌ' فمردها إلى الشرف والمكرمة والمجد، ولابد لنا من استقصاء الكلمة ومعانيها المتعددة لنصل إلى المبتغى العام للبيت الشعري الذي أراد الشاعر أن يسوقه إلى سامعيه.

فبالاستعانة بالمعجم نجد تعدد وتنوع المعاني لمصطلح 'شارفٌ' وهو على وزن فاعلٌ وأصله 'شَرُفَ'، و'الشَّرَفُ' هو المكان المرتفع أو العالِ، ومن ذلك العلو مكانةً وشرفاً، يقال رجل شريف أي ذو منزلة عالية في المجتمع، وزاده تشريفا أي عم عليه وفيه صِفةُ الشرف، وَالشُرْفَةُ تدلُ على الْقَصْرِ المشيَّدِ في مكان مرتفع ويشرفُ أو يُطلُ على

منخفضٍ، ويقال أيضا فلان أَشْرَفَ عَلَى الشيء بمعنى اِطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ مكان مرتفع وراقبه، ومن كل ذلك نستنتج وصف الشاعر للناقة الشارفُ بأنها من أصل شريف بمعنى الأهمية أو أنها ذات مكانة مهمة في المجتمع، ومثل ذلك القدر المليء باللحم فهو طعام يمكن وصفه بأنه شريف في أصله ويعطى كمكرمة وتشريف لمن يحتاجه من الفقراء وَالمعوزِينَ.

الشطر الثاني من البيت الذي يقول 'تقيد أحياناً لديهم وترحل' هو اتصال مباشر وتكملة للشطر الأول وأيضاً تأكيد لوصف البيت الذي سبقه:

*** وإذ ما يريح الحي صرماء جونة　　　ينوسُ عليها رحلُها ما يحلّلُ**

والذي لا يكتمل البيت موضوع شرح وتحليل هذا المقال إلا باتصاله المباشر بالبيت الذي يسبقه، وفي الشطر الثاني من هذا البيت نجد الشاعر يسترسل في وصف الناقة تشبيهاً لمبتغاه، فهو يصفها بأنها 'قيدا' تقيدُ أحياناً بجعلها مربوطة بقيد يمنعها من الحركة بحرية —كما نفهم من المعنى في المعجم الوسيط ج 3، ص (769)، فهي لا تتحرك إلا كما يُرادُ لها، ومثل ذلكَ قِدرُ الطعام فهو لا يتحرك إلا بمن يحمله فهو مقيدٌ أَحيَاناً، والحين هو الوقت والمدة والزمن ومرادفات 'الحين' عديدة كما في المختار الصحاح منها 'تَحِينَ' و'حَانَ' و'حِينًا' وعديدٌ غيرها، وبالعودةِ إلى شطر البيت الذي يختم بـ 'وترحل' والرحل مرتبط بالزمن والترحال، والقصد أن الناقة هي وسيلة مهمة للسفر والترحال في عصر عروة بن الورد، وكما في المعجم فالراحلة هي النَّاقَة اَلَّتِي تَصْلُحُ لِأَنْ تَرْحَلَ، وَقِيلَ الرَّاحِلَة هي الْمَرْكَبُ مِنَ الْإِبِلِ ذَكَراً كَانَ أَوْ أُنْثَى.

يتبع 9